(١١) هيرمان ميلفيل : رجل الثقة

بقلم : وارنر بيرثوف

إن رواية هيرمان ميلفيل الغريبة والمحيرة «رجل الثقة» التى تعد «حفلة تنكرية» بالنثر، والتى تسميها إليزابيث فوستر «آخر عمل له كروائى محترف» – هذه الرواية من الكتب التى تجعل حيرة القارئ جزءًا من موضوعها الأساسى . إنها تستفزنا بصراحة بسبب افتقارها الواضح إلى التسلسل المنطقى ، ثم من خلال ومضات من النظر الثاقب الذى يوحى بالحكمة السديدة والنهائية فى بساطة فجائية تستفز توقعاتنا التى فقدت الصبر ؛ لأنها لم تجد النظام والاتساق اللذين نعتقد أنهما يكادان يتطلبان مسايرة سلوكنا وعاداتنا الإدراكية الخاصة .

إنها تستفز أيضاً أحاسيسنا الخفيفة وإيماننا العميق السخيف بأنفسنا كقراء ذوى مبادئ نقدية ، وذلك فى بحثنا عن تأكيد نقاشنا الجدلى بدون الاستغناء عن متعة التسلية والانتقال بحرية من نقطة إلى أخرى . أو كما يؤكد ميلفيل بنفسه فى جفاء هذه الحقيقة فى واحدة من ملاحظاته الثاقبة التى نجدها مبعثرة خلال «رجل الثقة» والتى تدور حول طبيعة الرواية وانغماسنا فيها !

إنها تمسك بتلابيبنا أيضاً «ليس فى بحثنا عن قدر أكبر من التسلية ، ولكن فى البحث عن قدر أكبر من الحقيقة عند القاع أكبر مما تستطيع الحياة الحقيقية نفسها إظهاره ! »

والكتاب الذى نحن بصدده ببساطة «عمل للتسلية» كما يخبرنا ميلفيل فى الفقرة نفسها . ومن الغرابة بمكان عندئذ أن نقحم أى نوع من التساؤل النقدى الهجومى على الرواية بأن

نفترض فيها اتساقا أفضل ومنطقية أكثر كمالاً . وبالإيقاع اللاهث نفسه تقريباً على أية حال ، ذلك الذى يعلو بجدية تميز نبض الأحداث غير المنتظم فى الكتاب ، والذى يوحى بعدم الثقة فى المشروع كله بالنسبة للكاتب والقارئ على حد سواء – هذا الإيقاع يتصل فجأة بأعمق أسرار الحياة الغامضة وبوعينا بأنفسنا ككائنات روحية وخيالية . فكيف لكتابة الرواية نفسها أن تهرب من هذا القلق بعينه ، من هذه الازدواجية اللانهائية فى النظرة الإنسانية ؟ إذ إنها تجمع بين خداع النفس وسموها فى الوقت نفسه ! .

إنه لا مفر من الإجابة السلبية ، لكن ميلفيل فى هذا الكتاب لا يتعجب منها . فهو يوضح نقطته بهدوء : « مثل الرواية كمثل الدين فإنه يتحتم عليها أن تخلق عالماً آخر ، لكنها فى الوقت نفسه تشعرنا بقيدها حولنا . »

والكاتب الذى يصل إلى الدرجة التى يرى فيها وظيفته فى هذه الأضواء الشاذة : إما أن يكون على وشك التمكن النهائى من صنعته أو أن يكون قريباً من نقطة الانهيار ! وفى الواقع فقد أصبح من الصعب فصل الانطباع الخاص الذى تثيره فى داخلنا رواية « رجل الثقة » عن معلوماتنا حول نشرها فى بدايات عام ١٨٥٧ ، وهو النشر الذى وضع حدًّا لحياة ميلفيل كمؤلف للكتب ، وحدد بداية الانسحاب والاعتزال فى سنواته الأخيرة .

كانت رواية « رجل الثقة » آخر عمل نثرى مطول نشره ميلفيل فى أثناء حياته ، ومن ثم كان الأخير فى سلسلة الكتابات المدهشة التى زخر بها العقد القصير والباهر فى حياته العامة ككاتب أمريكى . وعندما ظهرت كان لايزال شابًّا لم يتعد الثمانية والثلاثين من عمره ، لكن كم كتب بالفعل فى تلك الفترة ؟ فمنذ قصة رحلته فى جزر البولونيز « تايبيه » فى عام ١٨٤٦ إلى قصته الرومانسية الرمزية المثيرة للأشجان « بيير » فى عام ١٨٥٢ – نشر سبعة كتب كاملة الطول منها تحفته « موبى ديك » ، وبين « بيير » و « رجل الثقة » لم يكن أقل إنتاجاً : فقد ملأ مجلات « بوتنام » و « هاربر » بسلسلة من القصص واللقطات التى تتميز بالخيال الحى .

(وقد يجدر بنا أن نلاحظ أنه فى عام ١٨٥٧ كان وولت ويتمان – الذى ولد فى عام ميلاد ميلفيل نفسه – قد كان يمر ببداية مستقبله كشاعر أمريكى .) وإذا كان ميلفيل قد بلغ نقطة الإجهاد الوظيفى فلابد أن هناك سبباً وجيهاً يكمن وراء هذا .

وقد أدت عدة ظروف خارجية أيضاً دورها فى الوصول بمستقبله إلى كارثة : ففى عام ١٨٥٣ اندلع حريق فى دار مجلة « هاربر » أدى إلى تدمير كل المخزون له من النسخ التى لم توزع

من أعماله المبكرة ، وكان هذا بمثابة صدمة أكثر منه مجرد قيد رمزى . لقد زاد من صعوبات أية استعادة ذات معنى لشعبيته التى ضاعت وللربح الفورى الذى عانى من ضياعه عند طبع « موبى ديك » و « بيير » . وعندما نشر « رجل الثقة » – التى لم تخذلها كل العروض التى كتبت عنها تماماً – وقعت فى الحال ضحية الفوضى الاقتصادية فى عام ١٨٥٧ . وكان الناشران الجديدان لأعماله – ديكس وإدواردز قد أفلست شركتهما فى شهر صدوزها نفسه . وعلى أية حال فإن هذه الأسباب تبدو عرضية ، لكن الأزمة الحقيقية كانت فى الداخل . وقد أدركت عائلة ميلفيل هذه الحقيقة فأرسلته فى جولة أوربية فى نهاية عام ١٨٥٦ لكى يستعيد صحته وتوازنه ؛ كما أدرك هوثورن هذه الحقيقة عندما تحدث معه فى ليفربول فى شهر نوفمبر من العام نفسه ، واكتشف أيضاً أن الشفاء لن يكون سهلاً بالنسبة له ، لكن الكتاب نفسه ربما يكون أقوى دليل على صحة هذا الكلام لدرجة أنه كان من المستحيل بالنسبة للقراء ألا يشعروا بهذا .

ومن بين كل كتب ميلفيل فإن « رجل الثقة » تعد على كل المستويات أكثرها إثارة للمشكلات والتعقيدات ؛ إنها ادعاء لا يمكن إنكاره فى قضية كانت أكثر أعماله الأولى طموحاً قد قوبلت بالترحيب من بعض من تصدوا لها بالعرض فى الصحف والمجلات على أنها تشكل دليلاً على رغبته الجادة فى تحطيم الإطار التقليدى للقصة .

وبداية فإنه لا يوجد من هو متيقن من أن الكتاب قد تم فعلاً ؛ إذ إنه لا ينتهى بخاتمة محددة ، بل يبدو أنه يتوقف فجأة تماماً مثل حياة كاتبه الأدبية على سبيل عدم تجنب المعادلة بين الكاتب ومستقبله الأدبى .

ومن ناحية أخرى فإنه لا يوجد من هو متيقن من أن ذلك يثير اختلافاً ضخماً . إن « رجل الثقة » تبدو ذلك النوع من الكتاب الذى يضع نصب عينيه مقولة أعظم واحدة للإدلاء بها ، وقد أدلى بها بالفعل من خلال إطار محدد ، لكنه يحمل داخله سلسلة من الأحداث التى تكررت بأسلوب شاذ بسبب العودة مراراً إلى مثل هذا التكرار . وقد لا نستطيع أن نوافق على ماهية هذه الرسالة بالضبط ، لكننا نشعر بالتأكيد بالتركيز العقلى المحدد الذى قيلت من خلاله ؛ بل إننا نعى أن ما نلاحظه إنما هو تكرار أنواع محددة من الحدث تتمثل فى تجديد مفهوم موحد واحد .

وفى الواقع فإن السرد الفعلى يوضح تقدماً معيناً إلى الأمام ؛ فإن كل منظر يمهد للتالى وتتحدد وظيفته على هذا الأساس لا أكثر ولا أقل ! إن رجل الثقة المثير للغموض يلقى بالتلميحات والمؤشرات التى تمهد أذهان ضحاياه للتوضيح التالى الذى يقوم به متخفياً فى

أسلوب جديد ، والتى تبلور هذه الأساليب المتتالية من التخفى والغموض على أنها شىء معتاد ومتوقع قبل أن يتوغل مرة أخرى مرتدياً إياها . لكن حتى القول بهذا يحمل فى طياته افتراضات أكثر من اللازم ؛ لأنه ليس من الواضح على الإطلاق أن نكتشف أن هناك رجل ثقة فقط كما يبدو مرتدياً أقنعة مختلفة ، أو أن هناك قارباً محملاً بكلّ طاقته برجال ثقة لا نفرق بينهم إلا بقدرة كل منهم على الأداء الرزين .

إن تتابع الشخصيات التى تمر أمامنا لا يتمشى بالضبط مع القائمة التى يقدمها لنا الأعرج الأسود فى الفصل الثالث الذى يبدأ التسلسل الرئيسى للفقرات متمثلاً فى قائمة هؤلاء الذين سيعلنون ثقتهم به وبعض الشخصيات التى يدلى بأسمائها تشبه تلك التى تظهر فيما بعد كشخصيات معادية لرجل الثقة وهى التى تمثل ظاهريًّا المزيد من ضحاياه .

حقًّا إن هناك معنى يكمن وراء كل فرد على ظهر سفينة المسيسيبى البخارية حيث تقع أحداث الكتاب ، إن كل واحد منهم يبدو كرجل ثقة وكضحية فى الوقت نفسه ! لقد وقعوا جميعاً ضحايا لنوع ما من التشتت الخيالى والذى يصدر عن واقع الحياة ذاتها ؛ إنه نوع من الهلوسة الداخلية التى تغرى الإنسان بأن يستهلك وجدانه وروحه وعقله – ناهيك بالمال السائل فى يديه – وتصل به وراء كل حدود الأمان ، ويبدو تطور أحداث الكتاب فى تلقائية وميكانيكية الحلم .

وهناك لمحات كلامية وأفكار ملحة تنضح فى حديث الشخصيات كما لو كانت تحلم ، بل إن السفينة البخارية نفسها تدعى بالفرنسية « المخلص أو الأمين » وذلك على سبيل التهكم ؛ لأنها فى واقع الأمر سفينة للحمقى الذى يعيشون فى الوهم الكاذب ؛ فهى ترحل فى أول يوم من شهر أبريل ويصفها ميلفيل بقوله : إنها « البرلمان الذى انضم إليه كل من هب ودب » وهى فى حالة استقبال مستمر « المسافرين جدد بدلا من هؤلاء الذين غادروها ، وعلى الرغم من أنها مملوءة دائماً بالغرباء – فهى بصفة مستمرة لكن محدودة تضيف إليهم أو تستبدل بهم غرباء أكثر غربة ! » . وكل يتحركون إلى نهاية مشتركة سواء أكانوا واعين بها أم غير ذلك ، أو كما يصفها ميلفيل بأسلوب غير مباشر : « إنها تذعن بطريقة إرادية لذلك القانون الطبيعى الذى ينهض على التحلل بالنسبة الذى يعتمد بها نفسها على التكتل ، وهذا هو ما يفعله الزمن بالنسبة لكل عضو من أعضائها . »

إن هذه الحركة والنبض الإنسانيين اللذين يتميزان بالاضطراب ذى الحركة البطيئة الملحة

التى تشبه حركة العميان الذين يتخبطون مع فريق آخر من العميان – وليس هؤلاء الذين يتصارعون فى رؤية بيتس ذات الطابع البطولى – هذه الحركة المضطربة مضمون كل منظر ، وهى التى تحل محل الحبكة ؛ فالإحساس ينمو ويسيطر على الموقف الذى يجسد لنا البشرية وهى تدور ببطء فى حالة من التنويم المغناطيسى. لقد وقعت أسيراً لسحر من صنع ذاتها تحت ضغط إطار من النظم التى أكل عليها الدهر وشرب ، نُظُم لا تعرف سوى الخداع وفقدان الثقة . ويبدو رجل الثقة نفسه قانعاً – بأسلوب غريب – بالقيام بألاعيبه وحيله على مستوى لا يليق به : فالعمليات الواضحة التى يقوم بها كوكيل لشركات وهمية للفحم ولمؤسسات خيرية بحيث يبيع الأدوية التى يطلق عليها اسم « المضاد لألم السامرى » و « البلسم المقوى الطارد لكل الأمراض » – كل هذه المحاولات لم يكن لها هدف محدد واضح سوى الحصول على « دولارين أو ثلاثة قذرة ! » ؛ مما يضفى المزيد من الغموض على الموقف كله .

أما تلك الشخصيات القليلة التى قد تبدو لفترة ما أسمى أخلاقاً من الآخرين مثل بيتش الأعزب المخادع الواثق من نفسه والقادم من ميزورى ناضحاً بالمرارة ، ومثل الفيلسوف الصوفى مارك ونيسام الذى يجسد نموذجاً متضخماً من الأخلاقيات الترانسيدنتالية التى تنادى بالتفاؤل وعدم الاعتماد على خدمات الآخرين – مثل هذه الشخصيات تبدو حمقى أو سفلة من لون أكثر خبثاً ! وهذه الحقيقة تتكشف لنا قبل أن نفرغ منهم ، وذلك عندما تتعطل طاقة الفضيلة الكامنة داخلهم ، ولا نجد أى مهرب من هذا الحفل التنكرى الراسخ والزاخر بالخداع والحماقة البشرية .

أما الشخصيتان اللتان يقدمهما الكتاب على أنهما خارج نطاق هذا المسرح الطافى للأحداث تماماً واللتان نعرف قصتهما من خلال قصص داخل القصة الرئيسية – فهما أكثر إثارة للرعب من أية شخصية أخرى ظهرت على ظهر السفينة :

جونريل الباردة العنيفة القاسية التى لا يعرف قلبها سوى الحقد والانتقام ، بل المراوغة أكثر من أية امرأة عرفها جنس النساء ، والتى اشتهرت لمستها بأنها تطعن وتجمد !

وكاره الهنود الكولونيل جون موردوك الرزين المستقيم الذى يكرس نفسه لديانة خاصة لا تعرف سوى القتل والانتقام الذى لا ينتهى !

إن العالم الأخلاقى لقصة « رجل الثقة » يتميز بغموض فى لون الشفق . ولكن عندما يندمج فيه المرء فإنه ينسحب تدريجيا وسط دوامة متزايدة الظلمة حيث تنطمر كل الحكمة التقليدية وتندثر كل الأضداد الزوجية التى عادة ما نستخدمها لكى نحافظ على التوازن :

العقل والجنون ! والحماقة والحكمة ! والعربدة والوقار ! والحماس والإحباط ! والإخلاص والدجل ! والأمانة والخداع ! وحب الإنسان وكراهيته ! كل هذه المترادفات تصبح من لغو الكلام الذى لا معنى له ! إنه عالم ضاعت منه كل بركات الرحمة الإلهية والقواعد الأخلاقية ؛ إذ إن وعينا يزداد أكثر بغياب فضائل معينة ، أو عناصر مفروض أن تكون ضرورية للفضائل ، وذلك من وعينا بقوة البدائل الشريرة ! ويبدو من المناسب أن تتمثل الصورة النهائية فى الكتاب فى المصباح الذى انطفأ .

والآن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن هناك تناقضات ونهايات معلقة فى نسيج السرد . ومن الواضح أن ميلفيل كان مريضاً وفى روح معنوية هابطة عندما كتب هذا الكتاب . وحتى من خلال دفعه للخط العام القائم على السببية المنطقية فإننا نستطيع أن نتصور كيف أنه بدأ فى صرف النظر عن إكمال هذا المجهود الذى جعله يشمئز من نفسه ، والذى وجد فيه مجرد حماقة لا معنى لها دفعته إلى التأليف .

إن مثل هذا الانهماك فى الكتابة ، وكل هذا المجهود لارتجال صور وشخصيات جديدة لها نمط السلوك الإنسانى الذى لا يختلف ولا يتنوع فى النهاية على الإطلاق – كل هذا يبدو مباراة من النوع الذى يحفل بأكثر العناصر إغراقا فى العبث . ومع ذلك تبدو الرؤية المنعكسة فى كل مكان موحدة وكاملة . ويبدو أننا فى مواجهة حضارة تسير نفسها بنفسها بحيث تتناغم هى وذاتها بطريقة غريبة مهما كان هذا التناغم محزناً ومثيراً للشجن ، لكنها حضارة ليست من السهولة حتى نجد المفتاح الحقيقى المؤدى إليها . وأنا لا أتكلم الآن عن التفاصيل الخارجية الكثيفة التى ترتبط بأحداث الكتاب ، والتى تشكل سخرية أخلاقية واضحة بما فيه الكفاية من تحلل المجتمع الخاضع تماماً لقيم المال والتجارة ، لكننى أتكلم عن خصائص هذه الرؤية ذاتها ، وهذا الأسلوب الذى يمثل الإنسانية التى تقف لنا بالمرصاد عند كل منعطف .

أما عن أعمق معانى الكتاب فإنها تتمثل فى الجو العقلى الذى تثيره وتنبع منه . إنها أعمق من «كوميديا الحدث» الساخرة التى ننشغل بها ظاهريا . وهنا مرة أخرى – مستعيراً مصطلحات من تعليق ميلفيل نفسه – تكمن «كوميديا الفكرة التى لا تخبرنا – مثلما تعودت الكوميديا أن تفعل – عن أية مساحة سيشغلها التجريد الخيالى للأحداث والشخصيات . إن «رجل الثقة» زاخرة بالشخصيات ذات الألوان المتعددة والتى يبدو أنها ترمز إلى السلوك الإنسانى الأساسى ، لكنها كتاب يثير الشكوك أيضا بطريقة عرضية «عن احتمال أن الإطار الإنسانى فى كل الحالات دليل نهائى على الإنسانية ذاتها» ، وعن احتمال أن المعطيات الأساسية

التى نتعرف من خلالها على الإنسانية – مثل الشعور والمنطق والعاطفة الطبيعية – يمكن أن تكون مناسبة للسلوك ولقوة التحمل العادية التى نلمسها فى الحياة كما نعرفها .

إن عدم الاستقرار المطلق للشخصية والسلوك الإنسانيين لهو مقولة أساسية تحكم الشكل الروائى مثلما تحكم المضمون الأخلاقى تماماً . وحديث رجل الثقة نفسه زاخر بالتحذيرات غير المباشرة فى هذا المجال : يقول مخاطباً أحد الذين لا يؤمنون بوجود الخير والتقدم فى الحياة الإنسانية : «لا تكن واثقاً تماماً ممن أكون أنا ! إنك لا تستطيع أن تصل إلى أية نتيجة نهائية قائمة على الإطار الإنسانى ! » ثم يوجه حديثه إلى آخر محاولاً تعريف العقل نفسه على أنه أولاً وقبل كل شىء «مادة مطاوعة» ، يقول : «إننا يا سيدى لسنا سوى طينٍ ! طين الخزاف ، أو كما يقول الكتاب المقدس ، إننا طين ضعيف ذو قدرة عجيبة على الاستسلام» . ومن هنا كان «غموض الذاتية الإنسانية بصفة عامة ، » وهو الغموض الذى يصدر عنه كل أوجه الغموض والشكوك التى هى أقل شأناً ، ومن هنا كان الإمكان العام لوجود الظواهر العبثية مثل صديق البشر وسندهم ، والمحب الحقيقى للبشرية الواثق من نفسه دائماً والذى لا يؤمن إطلاقاً بوجود الخير والتقدم فى الحياة الإنسانية ، أو حتى ذلك النقيض الأكثر عبثاً وزيفاً والمتمثل فى «عدو الإنسانية المرح» ، «ذلك النوع الجديد من الوحوش» كما يسميه رجل الثقة بهدوء بارد ، وهو الذى أتاح له التقدم العام الشرير للحياة الحديثة الرقيقة الناعمة فرصة الظهور . إن قوانين الحياة تتمثل فى التغيير المستمر وعدم الالتزام بخط واحد ، إنها على سبيل المثال الحقيقة (الوحيدة) التى تتكشف من خلال القصة الصغيرة المتزايدة فى الغموض الصوفى والتى تتمثل فى تشارلمونت فى الفصل الرابع والثلاثين ، وبناء عليه يجب أيضاً أن تكون القاعدة للنقاش والاتصال بين الناس .

ويلاحظ ميلفيل أن الأعلام العظام فى الأدب الروائى والدرامى لا يتفوقون فى شىء أكثر من تفوقهم فى تجسيد هذه القدرة المتجددة على عدم الالتزام بخط ثابت مستقر : إن شكسبير هو النموذج لكل هذا فى كونه يجمع بين «التنوير والغموض المتزايد» فى الوقت نفسه . فبالنسبة لهؤلاء الذين يرغبون فى التوضيح الكامل فإنه يملك قوة غريبة لكى «يفتح عيونهم ويعرى أخلاقهم فى عملية واحدة» وذلك على الرغم من أن القارئ الأكثر حكمة لن يقول أكثر من أن «شكسبير هذا إنسان غريب ! » على سبيل الثرثرة المقصودة والتى لا لزوم لها .

ونستطيع القول بأن مثل هذه الالتواءات والتعرجات فى الجدل تدل على المزيد من تكثيف تلك الصورة العامة للسلوك الإنسانى التى تميز كل كتابات ميلفيل لا أكثر ولا أقل ، بحيث تبدو

غالباً فى أول الأمر متجهة نحو الكوميديا ، باطراد متزايد تجاه أهداف تراجيدية .

إن الإنسان مخلوق معرض للأمراض المعدية المتوالية ، وتتمثل حيويته فى هيئة إذعان للحظة المعاشة بكل ما تحمله من كآبة نفسية وبائية . وفى « رجل الثقة » يبرز المرض المعدى للشك وفقدان الثقة منفجراً من فترة لأخرى فى نوبات عنيفة من كراهية الإنسان أو كراهية النفس النابعة من الكآبة الحقيقية . إنها كآبة ذات دلالة متزايدة ؛ لأنها لم تتجسد كعنصر غير مبرر أو بلا سبب ، لكننا نكرر القول بأن هناك نقصاً مثيراً للعجب فى التركيز والتأكيد الدرامى على تطوير هذه الصورة العامة : فإذا كان هناك أى اتفاق بين النقاد حول أى شىء ورد فى « رجل الثقة » – فإنه يكون هذه النقطة : إنه الأسلوب أكثر منه القصة الذى يعد المعيار الراسخ الذى يتحدث الكتاب من خلاله ، وهو الخط الرئيسى الذى تنهض عليه طاقته العامة أكثر من التسلسل السردى المتكسر الملغز ! إنه أسلوب غريب زاخر بالتلميحات الذاتية والتردد والشخصية المتميزة ، ومن حين لآخر يومض بالحكم والشعارات والصور الرمزية والشخصيات الوصفية الغامضة التى تلقى أضواء فاحصة على حيرة الجميع الأخلاقية .

وهكذا فإن الحركة التى تنبض بها الكتابة تمثل موكب الأحداث وتردد الشخصيات وعدم استقرارها داخل هذا الموكب . ولعل الخط بين التهكم ومجرد اللعب على الألفاظ ، وبين البصيرة الثاقبة والعبثية الواضحة – هذا الخط يتميز فى بعض الأحيان بالدقة والتحديد : ففى الوقت الذى نصل فيه متأخرين فى الكتاب إلى جملة مثل « أما الذى تتأتى له معرفة الإنسان فإنه سيظل فى جهله بالإنسان ! » – فإننا نجد أنفسنا فى الحيرة التى تصيب الشخصية التى تنطق بها نفسها ، ويصبح من الصعب أن نقرر : هل هذا لغو لا معنى له لتجنب الحديث الجاد أو حكمة خطابية على سبيل البلاغة ؟

ورجل الثقة نفسه هو الممثل الرئيسى لهذا الأسلوب ، والأسئلة التى تثار حول معنى الكتاب أسئلة فى النهاية حول حقيقة شخصيته ومهمته . من رجل الثقة ؟ وماذا يقدم لنا ؟ إن الكتاب زاخر بالتلميحات والإيحاءات والتعريفات الغامضة ، على الرغم من أن كثيرا منها لا يعكس شخصية رجل الثقة بقدر ما يعكس شخصية الحشد الذى يحكم عليه والذى لا يمثل سوى عدم الإدراك المشتت الذى لا يحمل فى طياته أى شكوك . وهو بالنسبة للآخرين مجرد محتال ، أبله ، وغد ؛ لكنه ربما يكون أيضاً على حد قول أحد الملاحظين له قد قام بتوزيع بعض المال فى أوجه الخير ! وعلى أية حال فإنها « أموال خيرة » و « عبقرية أصيلة » ، ومع ذلك فهو « رجل غريب الأطوار ملىء بالشكوك ! وبناء عليه فهو أقرب المرشحين لكونه

ممثلاً للإنسان بصفة عامة، إنه غريب ليست له شخصية محددة ، متخف وراء مظهر يوحى بالثقة فى النفس ، ويمثل الإنسان العالمى بأسلوب مدهش للغاية . وكما يذكره حلاق السفينة الخشن وأحد ضحاياه الذين لم يتخلصوا من تأثيره عليهم فيقول عنه : إنه «ساحر الإنسان» ! . وعلى قدر ما يصر على تقديم نظرية يعيش الناس على أساسها ، وعلى مواجهة تجربة الحياة فى هذا العالم – فإنه يمثل بصفته الشخصية نموذج «الرجل السعيد» فى عالم أصبح فيه عدم التعاطف اتجاهاً منطقيًا ، إنه «وغد ميتافيزيقى غير مألوف» ؛ فهو يبشر بالخير والإحسان والثقة بطريقة تغرى الناس بأن يفقدوا إيمانهم بهذه القيم أكثر : يقول للحلاق : «إننى محب للإنسان ، بل إننى حب الإنسانية نفسه ! ، «لكن إجابة الحلاق عن هذا الحديث الرقيق الناعم تحمل فى طياتها الوزن نفسه : «سيدى ، لابد أن تلتمس لى العذر ؛ فإننى مسئول عن عائلة . »

ولا شىء يشوش الإدراك أكثر من طريقة رجل الثقة التى يحدد بها أهدافه ، يقول : «لقد كرست نفسى من أجل صنع الخير لهذا العالم ، فقد خبرته بنفسى بصفة نهائية . »

هنا نستمع إلى أسلوب معين يحمل فى طياته استخداماً عنيفاً لتراكيب اللغة والغموض النحوى بسبب استخدام أنواع الضمير استخداماً يؤكد التهمة الأخيرة الموجهة إلى رجل الثقة على أنه أكبر المتعاملين مع الحقيقة خيانة لها : إنه الذى «يتلاعب بالأفكار بالأسلوب الذى يتلاعب به نفسه شخص آخر بالكلمات . » .

أو هل هو أسوأ من مجرد كونه وغداً ومتلاعباً بالأفكار والألفاظ ؟ فى تلك الطبعة الممتازة التى قدمتها إليزابيث فوستر لكتاب «رجل الثقة» استطاعت أن تبلور شخصيته بأسلوب يجعلنا نراه شخصيًا على أنه الشيطان ! ويجعلنا نفهم الكتاب بصفته تجسيداً للكيفية التى خلف بها عدو المسيح المسيح نفسه فى حكم هذا العالم ، وكيف «يستخدم الشيطان المثالية المسيحية لتحقيق أغراضه الخاصة . » وكما تصر الأستاذة فوستر على التأكيد بأن هذه «الأليجورية الرمزية» السوداء هى الوسيلة التى ينمى بها ميلفيل هجومه الساخر على كل السلسلة التى انتظمت فيها الفلسفات المتفائلة فى هذا القرن وما تبعها من ازدهار للاتجاهات الدينية والإنسانية والتجارية .

وقراءة الكتاب من هذه الزاوية أمر منطق ومعقول تماماً ، بل نتج عنها رأى أكثر تحديداً قدمه نيوتن آرفن عندما قال : إن «رجل الثقة» «واحد من أشد الكتب إلحاداً استطاع

أمريكى أن يكتبه ، إنه واحد من أكثر الكتب عدمية سواء على المستوى الأخلاقى أو الميتافيزيقى ! » .

إن الدليل واضح والقارئ الذى يظن عكس ذلك سيجد نفسه مدفوعاً إلى الوقوع فى براثن الشك وسوء الفهم بحيث يكتفى بقوله : « إننى لا أستطيع أن أقرأه من هذه الزاوية » . وبالتأكيد فإنه إذا كان رجل الثقة الغامض هو الشيطان ، أو هو الأمير المهذب الساخر بمرارة من عالم الكلاب والثعالب هذا – فلابد أن يكون إضافة ممتعة سواء على المستوى الصريح أو المستوى الجمالى ، بل إضافة أصيلة حقًّا إلى السلسلة العامة لشياطين الرواية الحديثة ، لكننا نستطيع أيضاً أن نجادل فى أنه بصرف النظر عن إغرائه للعالم وللبشر بالسقوط بعيداً عن الرحمة الإلهية ، أو قيادته له إلى طريق الغواية – فإن رجل الثقة يؤقلم نفسه فقط لهذا الوضع فى أثناء الرحلة البحرية . إنه لا يقوم بنفسه بتوجيه حركة هذا العالم ، بل يندمج فيه بمنتهى البساطة ، وينهمك فى ممارسة ألاعيبه نفسها . ونجده فى أكثر من مرة منهزماً ولا تقابل آلامه إلا بالاحتقار والسباب ، وعندما ينتقم لنفسه من حين لآخر ، ولكن فى حدود معينة – فإنه يفعل هذا بأسلوب يرضينا ؛ لأنه يفعل هذا من خلال الإيقاع بخصمه فى موقف مناسب يتناقض فيه ونفسه ، لكن الخسارة التى تقع على عاتقه لا تزيد فى أقصى حدودها على بضعة عملات أو فواتير قليلة . إن تفاهة الردع تتناسب بأسلوب رقيق والحقارة الأساسية التى تنطوى عليها الإساءة .

وهو فى الوقت نفسه يتكلم بقدر أكبر بكثير من ذلك الذى يحتال به ، وأكبر بكثير من أى عائد نقدى فورى إليه . إنه يتكلم ويتكلم ويتكلم ! إن دوره فى الكتاب يتمثل أساساً فى دفع عجلة الحوار والنقاش ، فهو « الرجل المتكلم » كما تدعوه إحدى الشخصيات ، وهكذا فهو معلم أو مدرس فى هذا المجال ؛ إذ إنه يجيب فى الحال : « إن الوظيفة العجيبة الملقاة على عاتق المعلم تحتم عليه أن يتكلم . » ويستمر فى الكلام فيقول : « ما الحكمة ذاتها سوى حديث المائدة ؟ »[1] .

وعلى أية حال فإن ما يقدمه ليس بنظرية مثل تلك التى يتحدث عنها المعلمون بأساليبهم المعتادة . إنها إلى حد ما صورة لأسلوب فى الحياة ، لكنه أسلوب بعيد عن خداع الناس للإيقاع بهم فى طرق الشر ، بل ملتزم صارم عندما يرى القضية الحقيقية والناس يتحولون عنها عند إدراكهم لها على سبيل تجاهل الحقيقة ، وذلك بأسلوب أعنف من هؤلاء الذين يكتفون بإحاطتها بشكوكهم العادية . إن الكلمة التى يمكن أن تطلق على هذا السلوك هى « الثقة » ،

لكنها الثقة التى تخضع للظروف والتطلعات والتى يمكن أن تستمر فقط من خلال عملية اختبار لا تنتهى ؛ إنها امتحان مفتح العينين بصفة مستمرة لكل الإشارات والتلميحات والدلالات ؛ إنها عملية مراقبة ملتزمة ليس لها قرار ، وليس منها فكاك فى هذه الحياة !

وبالإضافة إلى ذلك فبصفتها أسلوباً للحياة – فإنها تأتى فى حراسة التحذيرات المحيطة بها ، بل الأسوأ من كل هذا – إنها توجه ضد نفسها ، كما أنها موجهة تماماً ضد الأشياء الأخرى : ففى الفصل الأخير نجد رجل الثقة نفسه يتحدث مقتبساً كلمات من قصة ابن سيراك التى وردت فى الأسفار المشكوك فيها فى التوراة ، ويبدو أنه يربط فيها ما بين معلم الثقة وأعتى أعداء الروح ، وربما نجد أفضل تعريف لهذا الأسلوب فى الحياة فى الفصل السادس عشر كنوع من تفسير تعاليم القديس بولس فى رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكى الإصحاح الخامس ، الآية ٢١ التى تقول : « امتحنوا كل شىء تمسكوا بالحَسَن » .

(وهذا النص الإنجيلى يتبع بالنص فى أعقاب تحذير ملحوظ من التعاليم المزيفة لأبناء الليل .) هؤلاء الذين يرون النتائج التى تترتب على هذه التعاليم يصيبهم الرعب الحقيق لا محالة . وعلى الرغم من أنها ليست من التعاليم التى نربطها عادة بالشيطان فإن الانطباع الذى تتركه فى أذهان الذين يستمعون إليها يجعلهم يشعرون باللعنة تحيط بهم . ويعترض رجل مريض يلهث فى عذاب من أجل الشفاء : « ولكن لكى نشك فى الأشياء والأشخاص ونمتحن الجميع ، ونستمر على هذا المنوال الممل المجهد – فإن هذا يتعارض تماماً والثقة ! إنه الشر بعينه » .

وربما كان الأمر هكذا ، لكننى أرفض منطق هذا الرجل بصفتى أول ناقد حديث يبحث وراء المعنى العام الكامن فى الكتاب ، بل هناك ما يمكن قوله أيضاً فى هذا المجال : وهو أن الشخصيات تتقمص بطريقة غير غامضة روح فعلة الإثم ، بل إنها الشياطين فى هيئة بشرية تدخل عالم الكتاب ! وقد سبق لى أن ذكرت هذه الشخصيات بالفعل : الزوجة جونريل والصياد موردوك ، لكننا لا نقابلها على ظهر السفينة « فيديل » ولا يشاركان فى أحداثها الجازية . وكما نلاحظ فى الصورة الماثلة أمامنا – فإن السمة المميزة لشياطين ميلفيل الأخرى فى كل من أعماله المبكرة والمتأخرة تكمن فى الإصرار العقلى المطلق على فكرة واحدة أو فى جنون الفكرة الثابتة .

وفى قصيدة متأخرة حدد ميلفيل هذا الإثم الزاخر بالانتقام الخالص الكاسح بأنه العذاب

البشرى الذى لا يحمل فى طياته أى غفران .

أما العالم الظاهرى لرواية « رجل الثقة » فهو من صميم هذا العالم المليء بالضعف البشرى الناتج عن الظروف العادية . وعلى الرغم من أن افتتاحية الكتاب تطلق العنان للظلام والرعب الروحى – فإنها تحتفظ بكل المساحة للكوميديا فى الأسلوب والهيكل السردى (أو عدم اكتماله) وفى بلورتها للمضمون الرتيب تماماً . وهى تربأ بنفسها عن مثل هذه المعانى التى تلتصق بها من خلال التفسيرات التى ذكرت آنفاً .

وهنا مرة أخرى فإن جزءاً من اهتمامنا النقدى يرجع إلى البناء الغريب للكتاب . إننا ندرك فى كل ثناياه أن رجل الثقة ليس مجرد شخصية تنتمى إلى طراز مختلف عن الشخصيات الأخرى فى القصة ؛ إذ إنه من المؤكد أن يكون الشيطان هكذا ، لكنه يظل واعياً بنفسه إلى حد ما بأنه من صميم عالم السفينة « فيديل » وبأنه متواطئ مع أفرادها فى اللحظة الراهنة لكن على المستوى الشكلى فإنه من خلال الفصلين الأول والأخير (وهكذا من خلال أول وآخر نظرة نلقيها عليه) – يقف منعزلاً عن الجسم الرئيسى للسرد . . وهذان الفصلان اللذان يحتويان الكتاب يشبهان الفصول الخارجة على منطق الطبيعة والتى تشكل الروايات الصينية ذات البانوراما العظيمة . إنها فصول تدلى مباشرة بالجزء الأعظم من المضمون الذى غالباً ما تشتمل عليه الأحداث غير المنتظمة فى السرد الرئيسى . فى هذه الفصول الهيكلية لكتاب ميلفيل – يؤدى رجل الثقة دوراً مختلفاً عن دوره التنكرى المعتاد على الرغم من أنه يتصل به صلة وثيقة وبشكل واضح :

فنراه أولاً فى الفصل الافتتاحى غريباً كالحمل الوديع الصامت يجول فوق سطح السفينة « فيديل » شارحاً على لوح من الأردواز أساطير الإحسان العظيمة من رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس : ذلك الإحسان الذى لا يفكر فى الإثم ، ويجعل صاحبه يقاسى طويلاً ، لكن قلبه يظل رحيماً ، فهو يتحمل كل شىء ، ويؤمن بكل شىء ولا يخيب رجاؤه أبداً . ومثل أحد أبطال سيلون الغامضين فإنه يوصف بأنه « جاء من بقعة نائية جدًّا » ومازالت أمامه مسافة أخرى طويلة لكى يقطعها ! ويؤخذ وضعه على أنه « غير مناسب إلى حد ما فى الزمان والمكان » ، ويعامله المسافرون الآخرون بعداء يتطور من المضايقة والاستهزاء إلى الاحتكاكات واللكمات حتى ينسحب فى النهاية إلى عزلة راكدة بعد أن ينتهى من سلسلة أحاديثه عن الإحسان . فلا نراه مرة أخرى فى هذا الضوء .

وفى الفصول الأربعين التى تأتى بعد ذلك نجد أنه فى المناسبات النادرة التى يرد فيها ذكر الإحسان وعمل الخير كقاعدة ضرورية للجنس البشرى – فإن هذه القاعدة تصبح مثاراً للسخرية البالغة القسوة : يصيح أحد الذين يمثلون الشك فى أعنف صوره قائلاً : «إلى أين ستذهب بعملك الخيرى هذا ؟ إلى السماء ؟ هنا على الأرض يظهر الخير الحقيقى كل مظاهر الحب والحنان فى حين يتآمر الخير المزيف ! » : وفى النفس التالى مباشرة يسخر من الرمز العظيم للخير ذاته : «إنه ذلك الذى يخون الأحمق بقبلة ، ذلك الأحمق الخير الذى يؤمن بأن الخير كفيل بأن يجعله يحب أى إنسان . »

لكن المتكلم هنا إنسان تنضح منه السخرية المريرة ، له عين مسمارية ووجه ملحى وساق خشبية ! ، إنه «منحوس ضحل» لا يتعدى صوته حدود الأنين الأجش ، وهو شخصية لا يمكن أن نترك لها النطق بالقول الفصل . وطبقاً للفقرات المتتالية تبدو صحة كلامه بما فيه الكفاية ، لكنه خلال معظم رواية «رجل الثقة» فإن عمل الخير لا يلقى سوى الإهمال ! ومع ذلك يبدو لى أن البريق والحيوية الفريدة التى تميز هذا الفصل الافتتاحى الذى يشبه المهرجان – هذه الحيوية لم يحدث أن انطفأت بطريقة إيجابية ! إن حامل التعاليم فى القيام بدوره المعتاد كرجل للثقة يصبح مشكوكاً فى أمره ، وليست له كلمة محددة ، لكن التعاليم نفسها لا تمس بفعل هذا التغيير فى الأسلوب .

إن سيطرة مفهوم العمل الخير تبدو واضحة على بناء الكتاب كله بحيث ينطلق من خلاله بدفعة إيجابية . إن السرد الروائى المرتجل مهما كان طبيعيًّا ومباشراً فى تتبعه لهذا التحلل الأخلاقى الوبائى لا يمكن أن يلقى من على عاتقه الاهتمام بجرثومة الإنسانية داخلنا . ومن المؤكد أن ميلفيل لم يقصد هذا بالارتجال الروائى : فنحن لا نعرف شيئاً عن شجاعة ذكائه ، وعن قوته ككاتب يحافظ على الأفكار والمشاعر المتناقضة فى توازن معبر ؛ كما هو مطلوب منا أن نفترض فيه . فلا يصلح أى نمط لغوى لكى يعبر عن طاقة الخير الحقيقى ؛ فذلك ينبع من النظام الذى يحكم الأشياء نفسها ، مثل «الدين الحقيقى» – فى الفصل الحادى عشر – الذى يستقل بنفسه تماماً عن الصيغ الكلامية . إن الإنسان مخلوق من طين ، ضعيف ومتساهل ومستسلم أكثر من اللازم ؛ أما الخير فليس كذلك ؛ فهو فى ذاته غريب غامض وحاج عندما يجوس عبر ضمير البشر ؛ إنه قوة تسمو فوق الخيانات اليومية ؛ وتنتظر الوقت المناسب . فى هذا تشبه العناية الإلهية ؛ وإذا كان إيماننا بأنها «على أية حال تعتمد على المتغيرات اليومية مثل الأحداث

اليومية » – فإن هذا الاعتقاد سوف يتخبط : فقد كتب ميلفيل مشبهاً إياها « بسوق الأوراق المالية عندما تمر بحرب طويلة وغير مؤكدة » ، لكنها لا تعتمد على هذه الأوضاع إلى هذا الحد .

وعندما نشعر بقوة هذا الشرط الذى لا يمكن أن يتراجع أو يضمحل بفعل كل الألاعيب المزيفة التى ترتكب باسمه – فإنه مطلوب منا أن نسأل : هل كان فارض هذا الشرط – أى رجل الثقة نفسه – هو بالفعل الشيطان الذى يلعب على كل الحبال ، أو هو الوحش الأعظم الذى يفترضه عقلنا النقدى من خلال تأثره بسفر الرؤيا ؟ فمن المحتمل أنه ينتظر الوقت المناسب هو أيضاً ، وذلك فى عالم لا يشجعه أن يفعل أى شىء آخر بالمرة ! ففى الفصل الأخير يترك أركان السفينة التى تعود المسافرون الالتقاء فيها – وذلك لأول مرة منذ الفصل الأول – ويذهب إلى ما يشبه الغموض الذى يحيط بقمرة الربان حيث يجد رجلاً عجوزاً يجلس بمفرده « فى سلام » وهو يقرأ الإنجيل . هذا العجوز إنسان لم نره من قبل فى الكتاب ، إنسان لا يبذل أدنى مجهود لكى يفرض نفسه على العالم ولا ينظر إليه بشك أو عداوة ثابتة ، بل بنوع من الثقة التلقائية المشوشة التى تبدو قريبة جداً من الحماقة ، فهو رجل يناهز السبعين من عمره ؛ يصفه الكاتب بأنه يبدو « منتعش القلب » كصبى فى الخامسة عشرة ، ويرجع هذا بلا شك – كما يصر الوصف – إلى أنه ظل إلى حد ما « جاهلاً » بالحقيقة التى ينطوى عليها هذا العالم ، ولكن عندما يراه رجل الثقة فإنه يغير فجأة سلوكه المعتاد « ويخفض من النغمة التى طالما ملأ بها الآذان ! » ويبدأ الحديث الذى يزخر بالألغاز كعادته فى أى جزء من أجزاء الكتاب .

أصاب الرجل العجوز الاضطراب والحزن عندما وصلته تقارير جديدة تؤكد أنه لا شىء مؤكد ! بل كل شىء خداع فى خداع ! ولم يتوان لحظة فى أن يشترى القفل وحزام النقود الذى يحمله المسافر وذلك من بائع جوال لم يتعد سن الصبا ، ويمثل الشذوذ والخداع والحكمة التى يعتنقها هذا العالم . لكن رجل الثقة فى هذا المنظر يسلك سلوكاً يتميز بالتحكم والرقة ويختلف فى نغمته وما رأيناه منه من قبل . إنه ينظر إلى العجوز « نظرات كلها تعاطف » ، ويجيب عن تصريحه الذى يعلن فيه ثقته المطلقة فى قوة الله بمديح ملحوظ ومباشر يؤكد القيمة والراحة المطلقة الناتجة عن مثل هذه الثقة لمن يستطيع أن يحافظ عليها .

وفى النهاية عندما يبدأ مصباح الربان فى الاضمحلال بل ينطفئ بالفعل نجده يقود الرجل العجوز « برقة وعطف » خارجا من غموض المكان إلى حيث الأمن والراحة فى القاعة الفسيحة .

هل هناك احتمال أن تكون مثل هذه الشفقة والتعاطف فى النهاية شفقة حقيقية وتعاطفاً حقيقيًّا بحيث يمنحان ببساطة ويؤخذان ببساطة ؟ ألم نصل فى النهاية إلى لقاء خال من التوتر والصراع – على الرغم من كل الألاعيب التى مررنا بها – اللذين سبقا هذه النهاية ؟ إن المنعطف الذى سار معه السرد لا يحمل فى طياته شحنة لحظية من البطولة أو الدراما ؛ إنه لن يكون الأساس لتأكيد جديد يكتسح الكتاب من جديد ويبرهن على ازدواجيته المتزايدة . ومع ذلك فهو منعطف . إن فعل الشفقة والعطف قد تم بالفعل ، فهو خير لم يمسه أى شىء وقع منذ أن رفع الأصم الأخرس لوحه الأردوازى لأول مرة ، لذلك أثبت هذا الخير وجوده الفعلى . لقد انتهى المهرجان الطويل ، ذلك المهرجان الذى لعب فيه الشك المنطقى النابع من حب الذات وكراهية الآخرين على الأوتار الشاذة الكريهة النشاز تحت ستار غريزة الإحساس بالآخرين التى تدفع بالإنسان إلى أن يبحث عن راحته فى صحبتهم . انتهى المهرجان وتركنا الجميع مع هذين الرجلين : الغريب العالمى الكونى والعجوز المسحور بالثقة اللذين ارتبطا بعضهما ببعض برباط الشفقة والود المتبادل . إنها نهاية رقيقة زاخرة بالأمل على أية حال . وهى أيضاً حفل تنكرى ، لكنه يشيع راحة وبهجة أكثر أو على الأقل رعباً أقل مما نجرؤ على التفكير فيه .

ملاحظة

١ – الجملة التى تتبع ذلك توضح لنا الإشارة أو التلميح هنا إلى القضية العظمى التى برزت فى « العشاء الأخير» : «إن أعظم الحكمة فى هذا العالم التى كانت آخر ما نطق به معلمها : ألم تأت هذه الحكمة حرفيًّا وفعليًّا على شكل حديث على المائدة ؟»